كاترين شروكه

دموع
بيضاء

إهداء إلى شاينا

خرج هذا الكتاب إلى النور بدعم من *برنامج تقديم المعونات العاجلة في ولاية شمال الراين-فستفاليا 2020*، وتتقدّم المؤلفة بجزيل الشكر على هذا الدعم.

السابع عشر من أكتوبر 2016

مقدمة

في اللحظة الأولى، لم أستوعب الأمر على الإطلاق وهو ما كان غريبًا حقًا. كنا عند شجرة البلوط العتيقة بجانب البحيرة - وقد تمايلت الأضواء الزرقاء لسيارات الشرطة بشكل غير طبيعي في الظلام، وخلقت فجأة أجواءًا سحريَّة تشبه أجواء المسلسل الأمريكي "سي إس آي: ميامي"، في بلدتنا الغارقة في سباتٍ عميق في منطقة "شفارتسفالد". ربما كان يجدر بنا ببساطة أن نلتقي في وقتٍ لاحق وليس في الساعة العاشرة. كان من الواضح بالأساس أن شخصًا ما قد خرج من جديد، في هذا الوقت، في جولة مع كلبه. أو أن زوجين مسنين أخذا يتنزهان حول البحيرة واتصلا بخدمة الطوارئ. لكن لماذا يضطر البالغون إلى التنزه طوال الوقت؟ ولماذا ليلًا؟ أجد *ذلك* أمرًا مريبًا أكثر بألف مرة من بضعة مراهقين يحفرون قبرًا تحت شجرة.

غمر الضوء الأزرق وجه "إليف" المذعور وملامح "زيركان" المتحجرة وأعين "لويزا" و"أليكس" وفميهما المفتوحين عن آخرهما. أما "بنيامين"، فقد ذهب، لحسن الحظ في تلك اللحظة، لكي يقضي حاجته. يا له من *حظ* فعلًا. لا أريد أن أقلل من شأن الشرطة الألمانية بلا داعٍ لكن البعض يسمع أمورًا غير طيبة عن تعاملها مع ذوي البشرة السوداء. أقول إن هذا يتعلق فقط *بالتفتيش دون وجود شبهة* وما إلى ذلك. هاها. ربما كان "بنيامين" سيفقد أعصابه الآن لأني أختصر وجوده كله من جديد في لون بشرته. ولا

يمكن أن يكون الأمر متعلقًا في هذا الموقف بتفتيش دون شبهة. لكن عندما تطوقك ثلاث سيارات شرطة، و تضيء كشافاتها المشهد، فإنك تدرك فجأة الحقائق الظاهرة – ويتضح لك في أي خانة سيضعونك فورًا. فأنا، على سبيل المثال، وقفتُ هناك كأنني عاجز عن الحركة وأمسكتُ بغباء *جرة* في يدي. بينما رفعتْ "إليف" وحدها ذراعيها في الهواء كأن الشرطة تنتظر ذلك منا. لكنها للأسف، ظلتْ تمسك بيدها اليمنى المجراف، ولنقل: لا حاجة الآن لاستدعاء كلاب بوليسية أو خبراء مسرح جريمة ذوي ذكاء حاد. وما زال "زيركان" جاثيًا على ركبتيه أمام الحفرة، التي حفرناها، وكأنه يقيس عمق القبر بدقة. لن يكترث أفراد الشرطة في هذه اللحظة على الأرجح بأنني أحصل *في المعتاد* على أفضل درجات في مادة الرياضيات في الفصْل ولا بأنني كنت على وشك الفوز ببطولة شطرنج «مراهقي "شفارتسفالد"» في العام الماضي ولا حتى بأنني ألعب في مركز جناح أيسر في نادي كرة القدم بالبلدة المجاورة. في هذه اللحظة وحدها، أنا للأسف مجرد لصّ قبور ضُبِطَ متلبسًا أو شخص مصاب باضطراب عقلي يزعج الموتى الراقدين في سلام وربما كلاهما معًا.

لكي أكون صادقًا، أنا لا أستغرب إطلاقًا أن الشرطي مفتول العضلات ترك "لويزا" و"أليكس" يعودان إلى المنزل كأنهما مجرد شاهدين بالصدفة على كل ما حدث. فبالطبع لن يفضل أحد أن يلقي القبض على ابن عمدة البلدة وابنة مديرة فرع بنك الادخار. وعلى الأرجح كان أفراد الشرطة،

في ظروف أخرى، سيطلقون سراحي أنا أيضًا، ويتحفظون فقط على "زيركان" و"إليف" من أجل الاستجواب *المزعج*.

حدَّقت الشرطية بارتياب في غطاء رأس "إليف"، وعلى الأرجح كان "زيركان" مشتبهًا به لمجرد أن عينيه لونهما بني. أما أنا، فسأكون بالتأكيد خارج أي شبهة تتعلق بالإسلاموية لأنني كاثوليكي. أرى بوضوح أن الشرطي القوي وزميلته يحاولان أن يفهما هذا كله. المشكلة أنني، للأسف، الشخص الذي يحتضن الجرة بقوة. جرة من العلامة التجارية "جرين سبيريت"، مخصصة أصلًا لأغراض الدفن في الغابات، ومكتوب في النشرة المرفقة بها أنها *تتحلل بسرعة مذهلة وبدون أن تترك أي أثر*. لكن بالطبع، لا يمكن أن تتحلل في خمس عشرة ثانية.

بات واضحًا أمامي تمامًا، أنني ابتداءً من **الآن** على أقصى تقدير، عالق في مصاعب حقًا — وأن مشكلات الأسابيع الماضية لم تكن سوى مقدّمة لما هو أسوأ.

الثاني عشر من سبتمبر 2016

1

«صباح الخير يا بطل الرياضة! » أنزل والدي الجريدة وقال: «وماذا بعد؟ هل أنت مستعد لتنطلق في العام الدراسي الجديد؟ أنت تعرف بالطبع: الإنسان يعيش مرة واحدة! وإذا لم تخني ذاكرتي، فالفتيات في الصف العاشر يصطفون في طابور الانتظار».

نعم، وبكل وضوح. كان والدي يشبه نظام تشغيل أندرويد، إذ كان مبرمجًا ببرنامج مزعج للغة الشباب. قبل حتى أن يرنّ منبّهي، كنت قد سمعته ينطلق في جولة الركض الصباحية. والآن صار جالسًا أمامي بعد أن استحم للتو، تغلفه سحابة من عطر "هوجو بوس"، وجعلني أشعر أنني خاسر. فقد دفع نحوي عبوة موسلي مغلقة. حملت العبوة الكرتونية صورة مقعد شاطئ مخطط، وفجأة، استعدتُ ذكرى "ساسكيا" كأنها ومضة كاميرا: كيف ذهبتْ بي في جزيرة "تينيريف" إلى الكوخ الخشبي الأصفر الصغير ذي المظلات وكأنني قد غازلتُ آلاف المرات فتيات أكبر سنًا وكأنني أحمل دبلومًا في كيفية فك عقدة حمالة صدر المايوه البكيني المعقدة بطريقة احترافية. تظاهرتُ بأنني خبير رغم أنني كنت مبتدئًا تمامًا في كل هذه الأمور، وبعد محاولة فاشلة لنزع ملابسها (ترافقت مع سيل من الكلمات الإسبانية الغاضبة أطلقتها عاملة التنظيف)، عدنا متسللين في ارتباك إلى حفلة الكاريوكي. صرت كأنني ظل لـ"ساسكيا" طوال ثلاثة

أيام تقريبًا. كنت ألتمس قربها عند البوفيه وأتسكع دائمًا أمام أعين أسرتها. لكنها تجاهلتني ببرود قاتل. وعندما وصل منقذ سباحة دنماركي متمرس قرابة منتصف الأسبوع إلى مجمع قضاء العطلات، صار الأمر وكأنني غير موجود تمامًا. وبينما أخذتُ أكدس بمبالغة ثمار فراولة كثيرة في طبقي، وأنا أقف بجانبها عند نافورة الشوكولاتة، قالت لي بصوت يشبه الفحيح: «أنت لطيف حقًا، وربما أن شخصيتك رائعة أيها الصغير... لكن من فضلك، توقف عن مطاردتي. أنا كنت في ذلك المساء فاقدة لصوابي فقط، وبذلك انتهت قصتنا».

أخذتُ أمزّق عبوة الموسلي بأعصاب ثائرة. لماذا لا تنفتح هذه العبوة الغبية؟ كنتُ قد نجحت في إخفاء كل شيء عن والديّ — سواء علاقة الحب القصيرة جدًا أثناء العطلة مع فتاة من الصف الثاني عشر وكذلك ما تلاها من لوعة الفراق — لكن في داخلي، كنت لا أزال أعاني كأنني كلب جريح.

«حان الوقت أن تنخرط بشكل أكثر قليلًا في أنشطة أخرى خارج المدرسة، ألا ترى ذلك يا "ليني"؟» امتزجت جمل والدي في ذهني مع ذكرى ضحكات "ساسكيا" التي أخذت في التلاشي. لقد انخرطتُ بالتأكيد في أنشطة خارج المدرسة – لكن، للأسف، كان الدنماركيون أفضل مني بكثير في هذا المجال. تنهد أبي وقال: «ناولني إياها. كيف يمكن لأحد أن يكون بهذا القدر من عدم المهارة؟» فتح العبوة بحركة هادئة. وواصل حديثه قائلًا: «العمل التطوعي مفيد للسيرة الذاتية. في غضون عامين على

الأكثر، ستحتاج لذلك. ولا أقصد بذلك نشاطك في فريق المسرح بل مهارات حقيقية. لقد قابلت السيد "ريجنماخر" أمس في اجتماع مجلس البلدية، وكان رأيه أن ...».

لم تصل جميع كلمات والدي إلى مسامعي. استطعتُ أن أرى عبر النوافذ الصغيرة في غرفة المعيشة في المنزل الريفي أول تلاميذ في طريقهم نحو موقف الحافلات. تفقدتُ هاتفي الذكي وأنا مُتعَب. لقد أرسل لي "زيركان" في السادسة صباحًا لقطة شاشة، تظهر فيها الساعة مع رمز تعبيري معبر عن الشعور بالقرف. أفرغتُ متنهدًا رقائق الشوفان مع ثمار فراولة مجففة بالتجميد ومجعدة الشكل في وعاء. هل هذا إصدار من ثمار الفراولة الصيفية؟ يا له من زيف! ابتلعتُ طعام وجبة إفطاري بلا شهية. كم كان سيصير مذهلاً أن تصبح لي أخيرًا صديقة بعد انتهاء العطلة! أن أجرب الجنس أو على الأقل شيئًا يشبهه. لكنني، أحمق، فشلتُ بالفعل في أول عقبة تافهة.

أكمل والدي حديثه بإصرار قائلًا: «لقد فكرتُ أيضًا، هل تود أن تقدم المساعدة لصديقي المقرب "برنهارد" لمدة أسبوعين أثناء عطلة عيد الميلاد؟» وأضاف: «إنه يحتاج حقًا إلى مساعدة هذه الأيام. فهو، كما تعلم، نجار موهوب جدًا». ارتشف قهوته.

كان "برنهارد" في الأساس صانع توابيت بارع، وهو ما يتناسب تمامًا مع مزاجي الكئيب الذي أشعرني وكأن نهاية العالم تقترب. صارت حياتي تمضي في دوامة من الانحدار.

حدَّقتُ في والدي بحزن. كم وددتُ أن أقول: «لقد أحبط منقذ سباحة دنماركي أول محاولة لي!» لكن بدلاً من ذلك قلت: «سأفكر في موضوع "برنهارد". ربما أستطيع أن أتعلم بعض الأمور منه».

رفع والدي بصره إليّ مدهوشًا وقال: «رائع!» وقد اتضح أنه مرتبك لأنني وددتُ أن أخذ أحد مقترحاته على محمل الجد. وأظهر لي ابتسامة مشرقة من خلف الجريدة. يراودني الشك منذ بعض الوقت أنه على علاقة غرامية مع طبيبة الأسنان الجديدة التي يتردد عليها. فقد صارت أسنانه، في تلك الأثناء، بيضاء اللون بشكل مثالي لدرجة جعلتها لا تكفي لأن تكون ذريعة لاستمرار ذهاب والدي إلى الطبيبة.

دخلت أمّي إلى المطبخ، فأصدرت أرضيته الخشبية صوت طقطقة. تبعتها شقيقتي الصغيرة "ياسمين" خطوَّة بخطوة وحشرتْ جسدها بجانبي على المقعد الموجود في الركن. شغّلت أمّي الراديو أثناء مرورها. فملأت أنغام أغنية "إنسان" للمغني الإنجليزي "راج إن بون مان" المطبخ.

سألت "ياسمين": «ماما، ماذا سوف أصبح عندما أكبر؟» كان أمامها دفتر مفتوح به ملاحظات، دوَّنها أصدقائها. جلست "ياسمين" بتشوق أمامه وأمسكت في يدها قلم تحديد، نزعت عنه غطائه.

ذهبتْ والدتنا إلى غلاية الماء وأعدّت لنفسها شاي الأعشاب الذي يجعلها في حالة مزاجية جيدة. وكان هذا منطقيًا بالنظر إلى يوم العمل، الذي ينتظرها، وميل والدي إلى الدكتورة "شنابل" طبيبة أسنانه.

سألت والدتي "ياسمين" من فوق كتفها: «ماذا تريدين أن تصبحي؟»

فكرتْ "ياسمين" وقالت بتردد: «طبيبة بيطرية؟».

قلتُ لها مقترحًا بينما كنت أمضغ الطعام: «اكتبي رئيسة البنك المركزي الأوروبي».

تساءلت "ياسمين" بحيرة: «معلمة؟»

قالت والدتنا لها لتشجعها: «يمكنكِ أن تصبحي أي شيء تريدينه يا عزيزتي». كتبت "ياسمين" بخط غير واضح شيئًا في العمود، بدا كأنه كلمة «عارضة أزياء».

تابعت "ياسمين" أسئلتها: «ما البلد المفضل لي لقضاء العطلة؟»

بدت ماما عندئذ منزعجة: «كانت لديكِ ستة أسابيع لتجيبي على هذه الأسئلة. هل يجب أن يحدث ذلك الآن قبل خمس دقائق من بداية المدرسة؟»

مدَّت شقيقتي الصغيرة شفتيها بأسف ونظرت إلى والدنا لتلتمس منه المساعدة. فهزَّ كتفيه. وقال بحسم: «لقد سمعتِ ما قالته والدتك» وأضاف: «اعترفي ببساطة أنك لم تملأي المطلوب».

كان والداي سندًا حقيقيًا لبعضهما البعض وجمعتهما علاقة منذ أيام المدرسة وهو ما يضغط عليَّ بعض الشيء. أعني ذلك فحسب. حتى والدي، الذي صارت أسنانه مثل أسنان محاور في أحد البرامج الحوارية الأمريكية ويتواصل مباشرةً مع عالم صناعة التوابيت، استطاع في يومٍ ما أن يجد من يرتبط به عاطفيًا. كما أن تعارف والديّ في المدرسة الثانوية نفسها، *التي أدرس بها*، لم يجعل الأمر أكثر سهولة بالطبع.

قالت "ياسمين" متذمرةً: «لكنها لن تحبني بعد الآن».

قلت لها لأواسيها: «لن تحبك إذا أخذتِ منها صديقها الأول عندما تبلغين أربعة عشر عامًا». قهقهت "ياسمين" وأشارت لي أنني فقدت عقلي. فلأن عمرها تسعة أعوام، كان من الصعب عليها أن تتخيل أنها قد تهتم يومًا ما بشيء أكثر من مجموعة المنتجات التجارية للشخصية الكارتونية "أميرة الثلج".

رنَّ جرس الهاتف، وأمسكت أمي بالسماعة. «"فيرله" على الهاتف؟» لقد بدأ يوم عملها رسميًا. فتحتُ برطمان النوتيلا وغرستُ إصبعي فيه. رفع والدي حاجبيه في استياء قائلًا: «هل تعرف كم عدد السعرات الحرارية فيه؟ لا يجب أن نشتري هذا القرف بعد الآن».

سمعتُ أمي تسأل بلطف: «...هل حدثت الوفاة في المستشفى أم في المنزل؟»

آه نعم، نسيت أن أذكر أن والديّ يمتلكان، علاوةً على ذلك، مؤسسة لدفن الموتى. ربما أن هذا هو سبب ميل والدي إلى التخطيط الدقيق للحياة. كما أننا نتوقع منه دائماً أن ينثر ترابًا فوق رؤوسنا بشكل لا إرادي أو أن يبدأ عن طريق الخطأ بدهان أجسادنا وكأنها جثث.

أمسكتً سريعًا بحقيبة ظهري.

قال أبي: «اعتنِ بنفسك!»

قلت: «إذا مُتُّ بحادث، فأنتم حتماً ستكونوا أول من يعرف بالأمر، أليس كذلك؟» ثم أضفت: «تأكدي يا "ياسمين" من أنهم سيحترموا وصيتي الأخيرة. أرجوكم احرقوا جثتي وانثروا الرماد بطريقة احتفالية في ساحة السيارات أمام ماكدونالدز».

«أمر مضحك» هزَّ والدي رأسه بلا أدنى حس فكاهي.

«بمناسبة ذكر ماكدونالدز، اشتري لنفسك طعامًا من المخبز بعد انتهاء اليوم الدراسي» قالتها أمي وقد أنهت مكالمتها الهاتفية بالفعل.

«يجب أن أذهب بـ"ياسمين" إلى درس الفروسية ظهراً».

«رائع!»

«لا تتصرف هكذا، لقد ذهبت بك بالفعل عشرات المرات إلى بطولات كرة القدم أو مجموعات لعب الشطرنج أو إلى أصدقائك».

أغلقتُ الباب خلفي بصوتٍ صاخب وتوجهتُ إلى دراجتي. وضعتُ سماعات الأذن في أذني بينما شعرتُ بإحباط وغمرتْ أغنية "سعيد" لـ"فاريل ويليامز" مسامعي. لم أنجح في شيء في هذه الحياة اللعينة، كل شيء يسير بشكل غير صحيح: كنت شابًا يبلغ من العمر ستة عشر عامًا من "شفارتسفالد"، فقد قلبه في جزيرة "تينيريف". منعته والدته من الطعام، وكان لدى والده جثثًا كثيرة في القبو. بالمناسبة، اسمي "ليني" نسبة إلى القديس الشفيع "ليونارد". ربما كانت هناك بارقة أمل لو كانوا أسمونني نسبة إلى المغني الأمريكي "ليني كرافتيز".

رنَّ جرس هاتفي المحمول، وصلتْ رسالة من "زيركان"، نصها: «النجدة، هناك شخص غريب الأطوار يلاحقني!» أرسلتُ له ردًا عبارة عن علامة استفهام مكتوبة بخط كبير. ما من رد. ولم يرد أيضًا عندما اتصلتُ به. قفزتُ على الفور على دراجتي لأذهب سريعًا لمساعدة أقرب صديق لي.